حول « موازنة أدبية »

الموازنة — إذا أريد لها أن تقوم على أساس عادل سليم — ينبغي أن تكون بين شيئين متكافئين — تقريبا — إلا من فروق دقيقة لا يمزها إلا ناقد فاحص أوتى من حدة الذكاء ، وصواب النظرة ، وإرهاف الذوق ، حظا موفورا .. وليست الحال كذلك في الموازنة التي أجراها حضرة الأستاذ الفاضل « محمد عبد المنعم خفاجي » بين قصيدتين « من عيون الشعر الجاهلي » أولاهما معلقة عمرو بن كلثوم ، الأخرى مجهرة أمية بن أبي الصلت . إذ أنهما غير متكافئين كما أنهما ليستا من طبقة واحدة . والفروق بينهما واضحة ، لا تحتاج إلى إعمال فكر ، أو إجهاد ذهن ، وليس هذا من عنديانتا ولكن ما يقرره حضرة الكاتب الفاضل أثناء كتابته ، فهو يعترف بأن هناك فروقا فنية كبرى (لا دقيقة) لاحظها النقاد بين القصيدتين ، وقد ترتب على هذه الفروق التفرقة بينهما فوضعت الأولى (معلقة عمرو) في صف المعلقات ، ووضعت الثانية في صف المجهرات .

ويعترف أيضا بأن معلقة عمرو تمتاز بأنها الأصل الذي نسج على منواله أمية » فأمية إذن لم يأت بجديد خالص وإنما قال متأثرا عمرا في ملعقته ، حتى إن بعض أبيات قصيدته جاءت مشابهة لابيات من قصيدة عمرو مشابهة تامة حينا وتكاد تكون تامة حينا آخر كما يقر بعدم التكافؤ بين القصيدتين حين يقول « إن شاعرية عمرو في معلقته أقوى وأبين من شاعرية أمية في مجهرته سواء في الأسلوب أو المعاني أو الأغراض أو مدى الجودة الفنية ومواهب الشعر » فهو يفضل المعلقة تفضيلا مطلقا ، ويحلق بها في آفاق السمو الفني ، بينما يهوي بالأخرى هويا عميقا ، ويلقي بها في قرارات سحيقة من الضعف الأدبي ، وقصيدتان هذا شأنهما حوج إلى « ميزان طبلية » منهما إلى « ميزان حساس » يرى بدقة فروقهما .

بل هناك أكثر من هذا ، فهو يرى أن أمية نظم مجهرته في شبابه « قبل أن تكتمل شخصية أمية الفنية » ، ورغم كل ما تقدم مما يدل على عدم ارتكاز الموازنة على أسس سليمة ، وبالرغم من هذا الفارق الكبير بين شاعرية معلقة من عمالقة الشعر الجاهلي وشاعرية — أمية — التي لم تكتمل — حين نظمت القصيدة — أسباب القوة والخصوبة ، تجرى الموازنة .. ! ولاشك أنها مجحفة غير عادلة .

والتطويل ظاهر في الأسلوب ، ومن ظواهره الاستطراد والتكرار ، فيكفي أن يذكر الأستاذ أن قصيدة أمية هي إحدى المجهرات حتى يستطرد فيمددها ويوازن بينها ، ويذكر مطالع بعضها ، بينما يعرض عن ذكر مطالع البعض الآخر . ! ويكفي أن يذكر أن قصيدة عمرو هي إحدى المعلقات حتى يعرف المعلقات — وكأنها شيء غريب لم يسمع به أو كأنها جديدة على قراء « الرسالة » ..! ويذكر سبب اختيارها ، ولكنه لا يمضي فيذكر سبب تسميتها لتتم بذلك معرفة القراء .. !

وأما التكرار فكثير ، لفظا ومعنى ، فهو يكرر كلمة « الفنية » أيضا . ! وكأنه بالتزامها يضفي على الموازنة شيئا من سمات البحث العميق وهو يكرر حين يتكلم عن المعلقة ، فهو يصفها بأنها « ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لتغلب قبيلة الشاعر » وبعد قليل « فهي جديرة حقا أن تسمى ملحمة فهي تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها » وبعد قليل « عدتها تغلب كل مجدها وفخارها » ثم « ملحمة تاريخية نادرة » وأحيانا يقرر ، وعندما يكرر ينتابه بعض الشك فيما يقرر . مثال ذلك قوله « وتمتاز (معلقة عمرو) بأنها الأصل الذي نسج على منواله أمية » ثم يكرر وكأنه يستنتج « وتستطيع أن نقول إن أمية قلد في مجهرته عمرو بن كلثوم تقليداً فنياً واضحا » ويستطرد في التكرار « وصاغ قصيدته على موسيقى وقافية عمرو »

ونرى في الموازنة بين المجهرات تناقضا واضطرابا فهو يقول « وهذه القصائد السبع (يعني المجهرات) لم توضع في مرتبة واحدة لاتفاق موضوعاتها » ويقول بعد ذلك مباشرة « إذ أن موضوعاتها مختلفة » .. ! ثم يقول « فهي إذن إنما وضعت في منزله أدبية واحدة ... » ! ثم يدلل على اتفاق موضوعاتها بقوله « إذا يشبه بعضها بعضا في النواحي الفنية والفطرة الأدبية وفي خصائص الشعر والشاعرية ... » .

ويخالف حضرة الكاتب الدكتور طه في رأيه القائل بوضع